البيئة الطبيعية في تاريخ الجزيرة العربية القديم

رضا جواد الهاشمي
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

ان دراسة الاحوال البيئية لاية منطقة في العالم تنحصر ضمن نطاق الدراسات الجغرافية البحتة ، ولكن امر التعرف على الاحوال البيئية في أفقها التاريخي البعيد أنما ينحصر في موضوع يعرف بالجغرافية التاريخية • وهو موضوع تتظافر على دراسته جملة من الاختصاصات العلمية ، منها علم طبقات الارض (الجيولوجيا) وعلم النبات وعلم الحيوان القديمين وعلم الاثار • ومن زاوية علم الاثار ، بما يوفره من ادلة مادية وقرائن ، ننطلق في بحثنا الحالي لمحاولة التعرف على الواقع البيئي لجزيرة العرب في عصورها القديمة •

ومن الامور التي تحفزنا على دراسة الاحوال البيئية لجزيرة العرب بدليل المخلفات الاثرية ، هي قلة الدراسات المتخصصة في هذا الموضوع ، والتي نأمل الحصول عليها من الابحاث الجيولوجية والدراسات النباتية والحيوانية ، او من تراكمات التربة ، وفي نسب تدفق مياه العيون ، اومن معدلات سقوط المطر ونسب الرطوبة وغير ذلك من الظواهر الطبيعية •

كذلك كانت الصورة التي رسمها معظم الباحثين في تاريخ الجزيرة العربية عن احوالها البيئية القديمة ، والتي اعتمدوها في تفسيراتهم لاحداث التاريخ والحضارة العربية القديمة ، سببا رئيسا آخر شجعنا لطرق هذا الموضوع •

فصورة الارض الصحراوية الجافة ، شديدة الحرارة ، قليلة النبات والحيوان ، وما يرتبط بها من حياة بدوية لسكانها ،طغت على معظم الدراسات التي تناولت تاريخ العرب القديم ، واعتمدت بشكل كبير في تفسير أحداثه • وان اعتماد هذه الصورة في تفسير اسباب هجرة سكان الجزيرة العربية القدماء فيما يعرف بالهجرات السامية ليست بعيدة عن الاذهان • وذهب بعض الباحثين لأكثر من ذلك عندما ارجعوا النتاجات الحضارية العربية القديمة في مجالي العمارة والفنون الى تأثيرات الاقوام المجاورة ، وانها دخلت ارض جزيرة العرب عن طريق الاحتكاك بين العرب والامم المجاورة وهو الامر الذي حدث متأخرا بسبب الصلات التجارية ، وقد استفاد بعض هؤلاء الباحثين لدعم تفسيراتهم من بعض التشابه القائم بين عناصر حضارية عربية واخرى أغريقية او فارسية [1]ولكننا نعرف ان من اساسيات الحضارات المتقدمة شدة تفاعلها مع بعضها البعض اخذا وعطاء •

ومثلما كانت هذه الصورة المرسومة لاحوال البيئة العربية القديمة مشجعة لهؤلاءالباحثين ، كان نقص المعلومات عن مخلفات العرب الاقدمين مؤيدا لاستنتاجاتهم من جانب آخر •

ان اعمال الاستكشاف والتنقيب الاثريين الواسعة التي تشهدها مناطق مختلفة من جزيرة العرب في السنوات الاخيرة كفيلة الى حد بعيد بتغيير هذه الصورة ، او جانب منها ، وهي تواصل تقديم ادلة جديدة عن واقع حضاري متقدم للعرب القدماء على ارضهم في جزيرة العرب وضمن واقع بيئي مغاير لما هو عليه الان تماما •

---

(1) Gus van Beek : "South Arabian History and Archaeology"

تعريف بالجزيرة العربية وأحوالها البيئية

الجزيرة العربية ارض مترامية الاطراف تبلغ مساحتها زهاء (١٫٢٠٠٫٠٠٠) ميلا مربعا ، وهي تحتل الاقسام الجنوبية الغربية من قارة آسيا ، تحيطها البحار من ثلاث جهات فهي شبه جزيرة ، لكن البلدانيين العرب المسلمين جوزوا تسميتها « جزيرة العرب » ان ابرز مايميز ارض جزيرة العرب ثلاثة اشكال من التضاريس :ـ

١ ـ الجبال في الاقسام الغربية المتاخمة للبحر الاحمر ، وفي الاقسام الجنوبية ابتداء من مضيق باب المندب وحتى رؤوس الجبال عند مضيق هرمز (رأس مصندام)

٢ ـ الهضاب • وتغطي معظم اقسام الجزيرة العربية مما يلي مناطق الجبال ، وهي عبارة عن بحار من الرمال الواسعة تتناثر في بعض اقسامها تتوءات صخرية اعتاد العرب على تسميتها بالجبال ، وهي معالم بارزة يستدل بها في منطقة شاسعة وتتشابه في مواصفاتها •

٣ ـ الواحات ، وتتوزع في مناطق متفرقة من ارض الجزيرة ، ولكنها تكثر غالبا على الاطراف وبخاصة الجهات الشرقية ، كما نجدها احيانا في مناطق الوسط •

وعلى الرغم من اختلاف هذه التضاريس فان الطبيعة الصحراوية والارض الرملية تمثلان الصفة البارزة لاكثر من ٤/٥ مساحة جزيرة العرب ، وحتى المناطق الجبلية في جزيرة العرب تبدو غالبيتها جرداء قليلة الغطاء النباتي مما يجعلها تشابه الارض الصحراوية من حيث بيئتها واحوالها •

ومما يزيد من جفاف جزيرة العرب وشدة حرارتها وغلبة الطبيعة الصحراوية عليها انها لاتعرف انهارا كدجلة والفرات والنيل وامطارها قليلة جدا ، حيث تحجز سلسلة جبال تهامة الرياح العكسية الممطرة عن التوغل في

أعماق الارض العربية ، كذلك تفعل السلاسل الجبلية الجنوبية في حجز الرياح الموسمية • وما يتجاوز هذين الحاجزين من الرياح المحملة ببخار الماء يصادف ضغطاً عالياً بسبب الحرارة الشديدة فتتصاعد عاليا في طبقات الجو وتسير نحو الشرق أو تتلاشى في طبقات الجو العالية واذا تهيأت الظروف المناخية لاسقاط المطر على ار ض الجزيرة العربية وذلك مايحدث في الشتاء والربيع ،فهو يروي بعض الظمأ ،وقبل ان ترتوي بعض الحشائش والشجيرات العطشى تبتلعه الارض الرملية وتخزنه في جوفها ليتدفق عبر طبقات صخرية حتى يجد بعض المنافذ عند الواحات في اطراف الجزيرة فيتدفق ليملأ الارض خيرا وعطاء •

ويكون طبيعيا ان مثل هذه الظروف البيئية تناسب انواعا معينة من الحيوانات والنباتات التي لها من المواصفات التركيبية ما يتناسب مع هذه الخصائص الحياتية ، من ذلك مثلا الابل من بين الحيوانات وانواع خاصة من الشجيرات من صنف الشوكيات التي تتناثر هنا وهناك على ارض الجزيرة العربيـــــة •

ومن الطبيعي ايضا الا تتناسب هذه الظروف البيئية مع حياة مستقرة متطورة ، لذلك كانت البداوة سمة الحياة الغالبة على سكان الجزيرة العربية ولكن هذه الصورة لواقع الحياة والبيئة الحديثة لارض الجزيرة العربية ، تعمم خطأ في غالب الاحايين لتشمل الواقع القديم لبلاد العرب •

فأولا وقبل كل شيء علينا ان نفرج مساحات واسعة من ارض جزيرة العرب خارج أطار هذه الصورة ، وهي تلك الأرضين التي توفر كل شروط الأرض الزراعية الخصبة التي هيأت فرصاً للتطور الحضاري المتقدم في تاريخ العرب القديم والمعاصر ، من ذلك العربية الجنوبيـة بشكل خـاص ومناطـق

الواحات الواسعة المتناثرة على أقسام من أرض الجزيرة العربية، كالحجاز وبعض مناطق شرقي الجزيرة العربية على مقربة من سواحل الخليج ومناطق اخرى متفرقة .

ان هذه الاقسام من جزيرة العرب لاتخضع للشروط البيئية العامة التي تتصف بها غالبية ارض الجزيرة في الوقت الحاضر ، لذلك فمثلما كانت هذه الاقسام مراكز حضرية متطورة في تاريخ العرب القديم فهي مناطق كثافة سكانية ملحوظة في الفترات التاريخية اللاحقة وحتى في الوقت الراهن ، ولها من الامكانات الطبيعية مما يشكل مرتكزا جيدا لبناء حضاري شامخ .

ولكن بعض هذه الاقسام من ارض العرب ، التي لايختلف اثنان في شروط الحياة المشجعة فيها ، تشير في جملة من الادلة المباشرة وغير مباشرة الى ان اهميتها تضاءلت تدريجيا ، وضعفت قدراتها على النماء ، وانخفضت نسبة الكثافة السكانية فيها . وان من بين الاسباب لهذا التغيير تبدل الاحوال البيئية في عموم ارض الجزيرة العربية والتي شملت بتأثيرها هذه الاقسام ايضا .

وعليه ، يبدو لنا جليا بان دراسة احوال المجتمع واحداث التاريخ والحضارة العربية القديمة لاتستقيم الا من خلال تفهم دقيق وواضح للواقع البيئي القديم الذي كانت عليه ارض الجزيرة العربية .

وتواجهنا في هذه الدراسة صعوبة رسم الحدود الزمانية للبحث . واذا كان ظهور الاسلام يؤشر الحدود النهائية ، لانه بالاضافة الى احداثه تغييرا جذريا في بنية المجتمع العربي واساليب حياته ، فبفضله ايضا وصلتنا ادق التسجيلات عن واقع الحياة والبيئة العربية ، ولكننا بسبب اعتمادنا المخلفات المادية من آلات وادوات وبقايا ابنية ورسوم كقرائن للأوضاع البيئية ، فان قدم هذه المخلفات سترسم الحدود الاولى للبحث .

ان دراسة تاريخ العرب القديم على الرغم من تقدمها الكبير في السنوات الاخيرة ، لاتزال تتلمس بدايات الطريق الطويل • كما ان تحديد الفترات التاريخية والحضارية لا تزال تعتمد المقارنة بأدلّة الفترات التاريخية والحضارية لمراكز الحضارات المجاورة مثل حضارة وادي الرافدين وحضارة وادي النيل •

الادلة المعتمدة في الدراسة :

أشرنا فيما سبق اننا سنعتمد الادلة المادية في تحديد تصوراتنا لبيئة الجزيرة العربية القديمة ، فبقايا الابنية والمستوطنات في مناطق من ارض العرب تنعدم فيها حاليا شروط الحياة الانسانية تشير علينا بواقع بيئي مختلف • كما ان صور الحيوانات التي لاتتفق مواصفاتها البايلوجية مع بيئة جزيرة العرب الحالية ، والتي نجدها تتكرر في مناطق مختلفة ، نرى فيها ايضا اشارات ذات دلالات قوية بخصوص الاختلاف في الواقع البيئي ، بخاصة اذا ما وجدت هذه الادلة الاثرية دعما لها في الكتابات القديمة •

ان بقايا خزانات الماء ومشاريع الارواء ودلائل زراعة الارض كلها اشارات الى ظروف بيئية اكثر تشجيعا على الحياة والنماء والتطور في عصور الجزيرة العربية القديمة •

وستكون لنا وقفة مع القرآن الكريم ومبلغ عنايته بما يرتبط بالزراعة واسبابها وذكر انواع النبات والثمار وبعض الحيوانات، وهي معلومات تتجه جميعا لتأكيد الواقع البيئي المشجع على الزراعة والتحضر والتي شهد الاسلام اواخره • وسنجد لتعليمات القرآن الكريم وعنايته بالزراعة واسبابها ترجمة في الواقع العملي لحياة العرب من مراسلات النبي ص•

واخيرا، سيكون للتفتيش بين ثنايا كتب المؤرخين والبلدانيين العرب فائدة كبيرة في تقصي المعلومات عن آثار العرب الاقدمين وانماط حياتهم وطبيعة بلادهم ، بخاصة تلك المعلومات التي ترتبط رواياتها بالجن والعمالقة والاقوام البائدة ، وباختصار الروايات الاسطورية عن الواقع القديم ، الذي يؤكد قدم ذلك الواقع •

الادلة الاثارية :

١ ــ رسوم الحيوانات

وفر لنا كتاب « دليل الآثار في المملكـــة العربية السعودية » صورا فوتوغرافية رائعة لمعالم أثرية متفرقة من انحاء مختلفة من جزيرة العرب • وان من ابرز الصور التي تهمنا في موضوعنا الحالي صور النعام والخنازير والثيران والماعز والاسود • لقد حفرت رسوم هذه الحيوانات على الواجهات الصخرية للنتوءات والكتل الصخرية (الجبال) على مفترقات الطرق في جزيرة العرب •

جائتنا هذه الرسوم من مناطق مختلفة من ارض جزيرة العرب ، منها في نجد على مقربة من الرياض والمدن القريبة منها ، واخرى قريبة من حائل وبعضها مجاور لتبوك ، وتكثر صور الاسود في منطقة الحجاز بحيث ان واجهتي ضريحين او مدفنين نحتتا على هيئة اسد •

اما تاريخ هذه الرسوم فأمر غير مؤكد حتى الوقت الحاضر ، ولكنها قطعا ترجع الى الفترات التي سبقت الاسلام بسبب موقف الاسلام المتشدد من اعمال الرسم والنحت والتصوير • كما ان بعض الادلة الكتابية القديمة المنقوشة بجوار هذه الرسوم على الصخور ذاتها ، يستفاد منها في اعطاء تاريخ تقريبي لهذه الرسوم • فيتأرجح زمنها بموجب ذلك مابين ٤٠٠ ق •م ــ ٥٠٠ م •[٢]

لقد تم اكتشاف قشور بيض النعام مشكلة على هيئة كؤوس في بعض قبور البحرين وهي تؤرخ بحدود الالف الثانية ق • م[٣] ولوحظت اواني

---

(٢) مقدمة عن اثار المملكة العربية السعودية : ادارة الاثار والمتاحف ــ وزارة المعارف المملكة العربية السعودية ١٩٧٥ ص ١٧ــ١٨

(٣) G. Bibby : Looking for Dilmun, Proof Edition book, 1973, P. 33, 77.

مماثلة في قبور منطقة « هجر بن حميد » (حضرموت)[٤] تؤرخ بحدود القرن الثاني ق • م • واخيرا فان كؤوسا مماثلة مصنوعة من قشور بيض النعام ومطعمة باصداف واحجار عثر عليها في المقبرة الملكية في أور ، وبعضها من معروضات المتحف العراقي ببغداد •

وهكذا تزداد ادلتنا عن انتشار هذا الحيوان في مناطق واسعة من ارض جزيرة العرب • ويذكر المؤرخ اليوناني زينيفون (٤٠١ ق • م •) الى ان اقليم الجزيرة شرق الفرات كان يعج بافواج من الحيوانات البرية مثل الحمر الوحشية(*) والنعام والحباري وبقر الوحش ، ويتحدث عن طريق صيد هذه الحيوانات ويؤكد صعوبة الامساك بالنعام[٥]

ويقتات النعام النبات ولكنه يتناول بعض الاحيان المواد الغذائية الحيوانية ويتحمل النعام العطش لفترة طويلة ، وانقرض هذا الحيوان من سوريا والجزيرة العربية في عام ١٩٤١ م ، وينتشر الان وباعداد قليلة بشمال افريقيا من المغرب حتى السودان •[٦] ان اختفاء الحيوان حاليا من مناطق جزيرة العرب لا يمكن تفسيره الا في ضوء المتغيرات البيئية •

---

(٤) Richard Le Baron Bowen and Frank P. Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia. Baltimore, 1958, P. 8.

(*) تشكل عظام الحمر الوحشية اكبر نسبة بين بقية انواع العظام المكتشفة في تل «ام الدباغية » الذي يقع على مقربة من مدينة الحضر ويرجع زمنه الى حدود الالف الخامسة ق.م وعظام الحمر الوحشية بنسبتها العالية ليس لها مثيل في كل مواقع العصر الحجري في الشرق الادنى القديم . انظر (Sandor Bokonyi, "The Fauna of UMM Dabaghiyah" IRAQ, XXXV, (1973) P. 9

(٥) F.R.B. Godolphin, The Greek Historians, vol. II, New York, 1942 Xenephon, Anabasis, I - 5 - 1, (407 B.C.)

(٦) The New Encyclopaedia Britannica, (ostrich) London 1974.

والخنزير حيوان آخر يؤشر الواقع المناخي المتغير للجزيرة العربية ، فبالأضافة الى ورود ذكره في القرآن الكريم في معرض تحريم اكله ، وهو امر يشير الى توفره في بلاد العرب واعتياد العرب على صيده وتناول لحمه ، نجده ايضا مصورا على بعض الواجهات الصخرية ، وهو في شكله المرسوم اقرب الى شكل الخنازير البريـة .

يقتات الخنزير الوحشي بشكل رئيس على البلوط والجذور وثمر شجرة الزان ، وبذلك فحياته تشير الى ملائمة لمنطقة نفضية معتدلة(٧) . كذلك يمكننا اعتماد بيئة القسم الجنوبي من العراق حيث تكون كثرة المستنقعات الكثيفة بالاحراش وغابات القصب واشجار النخيل بيئة مثالية لحيـاة الخنازير الوحشية . فهل كانت بيئة خيبر وفدك والمدينـة والطائـف والعـلا وتيماء وغيرها من مناطق الواحات والمياه الوفيرة بيئة مقاربة الشبه لبيئة العراق الجنوبية ؟

ونستطيع ان نستنتج من رواية سجلتها كتب التاريخ العربي واقعا بيئيا لخيبر يتفق كثيرا مع استنتاجاتنا فيروى ان شاعرا فقيرا كثير العيال قصد خيبر برغبة التخلص من بعض اولاده بسبب تفشي وباء الملاريا فيها وقال هذين البيتين :

قلـت لحمـى خيبـر استعدي هناك عيالي فأجهـدي وجـدي
وباكـرى بصـالب وورد أعـانك اللـه على ذا الجنـد(٨)

ولكنه حم ومات وبقي عياله

---

(٧) I. W. Cornwall, Prehistoric Animals and their Hunters, London 1968, P. 48-49.

(٨) زكريا بن محمد بن محمود القزويني (توفي ١٢٨٣ م) : آثار البلاد واخبار العباد ، دار صادر بيروت ، ص ٩٢

فانتشار الملاريا ملازم لكثرة المياه الراكدة التي يحتمل انها كانت تفيض عن حاجة الاراضي الزراعية لتستقر بعدئذ في اطراف المدينة حيث المنخفضات الارضية . وربما يفسر ذلك تقصير سكان خيبر في الاستفادة الصحيحة والقصوى من المياه ضمن مشروعات ارواء لاغراض الزاعة ، فادى ذلك بالمياه الفائضة للتجمع في المنخفضات التي اصبحت بيئة جيده لمعيشة البعوض ومهما يكن من اسباب تجمع المياه فهي تشير من جانب اخر الى وفرتها في بيئة خيبر . وكانت خيبر حتى عهد الاسلام الاول مدينة مشهورة بزروعها وبساتين نخيلها وكثرة ناسها[٩] وتقدم لنا رسوم الصخور صور الثيران ، التي يظهر فيها بقرون طويلة واخرى قصيرة . والثيران والابقار عموما تلتصق حياتها بالمناطق الزراعية الوفيرة المياة ، وهي تفضل مناطق الحشائش المعتدلة ومناطق الغابات النفضية المكشوفة[١٠] . واذا كانت بعض الثيران والابقار المدجنة قد نقلت الى مناطق جزيرة العرب من الاطراف او من افريقيا ، فيبقى امر بقر الوحش الذي يدعونا الى اعادة النظر في امر تواجدها على ارض العرب ، وقد تردد مرارا ذكر هذا الحيوان بصفته الوحشية في الشعر العربي القديم ، وكان مضربا للامثال في شعر «الايام» وهو توكيد على صلة وثيقة للعرب بهذا النوع من الحيوانات[١١] رلانجد مناصا من الاقرار ببيئة طبيعية مناسبة لحياة هذا الحيوان .

اما الاسود فهي تتآلف لحد وقتنا الحاضر مع المناخ الحار للاراضي المعشبة قليلة الاشجار في افريقيا (مناطق السفانا[١٢] وتعتاش الاسود عادة على الحيوانات التي تكثر في مثل هذه المناطق كالضباء والآيل وحمر الوحش والابقار وغيرها .

---

(٩) القزويني ، المصدر السابق ص ٩٢

(١٠) Cornwall, op. cit.

(١١) د . عادل جاسم البياتي أيام العرب (القسم الاول) بغداد ١٩٧٦ ص ٢٣٥

(١٢) Cornwall, op. cit.

ان رسوم الاسود التي وصلتنا تتركز في منطقة الحجاز مما يرجح ان تكون مناطق الزراعة ومصادر المياه وبخاصة العيون اكثر واكبر حجما مما هي عليه الان • ولاتزال المنطقة تشتهر بكثرة واحاتها ووفرة مياهها بالقياس لغيرها من اقسام بلاد العرب • وبسبب هذه الخاصية للمنطقة فقد كانت قديما طريق مرور القوافل التجارية الرئيسي الذي يربط جنوبي جزيرة العرب بمدن الشام وسواحل البحر المتوسط ، وبخاصة وهي تنحصر بين سلسلة جبال تهامة من الغرب وبين صحراء نجد واطراف الربع الخالي من الشرق •

اما الماعز الجبلي ذو القرون الطويلة فتتكرر رسومه من مناطق مختلفة من جزيرة العرب ، والماعز كبقية الماشية يفضل مناطق الحشائش المعتدلة الوفيره المياه • ولكن اظلافه تتيح له حرية الحركة في المناطق الصخرية والجبلية ، لذلك تكثر تربيته في الاقسام الجبلية من جزيرة العرب حيث تتوفر مستلزمات حياته من نبات وماء • ولاتزال مناطق العربية الجنوبيةتشتهر بتربيتهحتى الوقت الحاضر(١٣) •

٢ ــ مشاريع الارواء القديمة :ــ

وابرز مايلفت الانتباه في المخلفات الاثرية ومن اقسام متعددة من جزيرة العرب ، سعة بقايا الاعمال المتعلقة بالارواء من سدود ومصارف وسواقي وقنوات جوفية (أفلاج) وصهاريج وخزانات • وهي تمثل شواهد حية تتحدث عن جوانب التقدم في حياة العرب القديمة • وليس غريبا ان نصادف معظم هذه المخلفات في مناطق بعيدة عن الحياة الحضرية ويغلب عليها اليوم الطابع الصحراوي وتتراكم في اطرافها الرمال •

---

(١٣) بخصوص رسوم الحيوانات المستعرضة انظر (مقدمة عن اثار المملكة العربية السعودية الصفحات : ٢٢ ، ٢٦ ، ٧١ـ٨٢ ، ٦٨ ، ٩٨ ، ١٣٥ ، ١٤٥ .)

وانظر ايضا بخصوص تواجد وانتشار هذه الحيوانات (د جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، جا ص ١٩٩ــ ٢٠٥)

ففي دراسة تاريخية قيمة عن تاريخ الري في وادي حضرموت بجنوبي الجزيرة العربية ، يقدم الباحث لدراسته بهذه الاسطر ذات الدلاله العميقة والتي تهمنا في بحثنا هذا : « في أقليم جغرافي كجزيرة العرب ، واليمن منها خاصة ، تلعب الامطار والسيول وما ينظم للاستفادة منها من صهاريج وسدود ومصارف وسواق ، دورا رئيسيا هاما في مجال الري والزراعة ، قامت عليها حضارات عندما كانت هذه السدود والسواقي قائمة ومعمورة ثم بادت هذه الحضارات عندما خربت وتهدمت[١٤]

كان وادي حضرموت ، الجاف حاليا ، في الفترة الى ماقبل (٢٠٫٠٠٠ ـ ٢٥٫٠٠٠ سنة الماضية نهرا عظيما يتدفق نحو الشرق [١٥] ، وتصب فيه روافد لاحصر لها هي تلك الوديان الصغيرة التي تؤدي الى حضرموت [١٦]

---

(١٤) علي عقيل : « نموذج تاريخي عن الري في وادي حضرموت » مجلة التراث ـ المجلد الاول العدد الاول مارس ١٩٧٧ ، عدن ص ١٨٨ .

(١٥) ان كثيرا من وديان الجزيرة العربية التي تشهد تدفق الماء فيها موسميا اثر سقوط الامطار في فصلي الشتاء والربيع ، يبدو انها كانت في تاريخ الارض العربية القديم دائمة الجريان ، او تبقي المياه في قيعانها على مدار السنة على اقل تقدير مما دفع بسكنة الجزيرة العربية على تسميتها بالانهار وبقيت هذه التسمية في المتوارث الشفهي حتى فترات التدوين التاريخي من ذلك مثلا تسمية وادي الثرثار الذي يمر بجوار مدينة الحضر بنهر الثرثار ، ويصفه القزويني على الوجه الاتي : « وبجانب المدينة (اي الحضر) نهر الثرثار ، وكان نهرا عظيما عليه جنان بناها الضيزن بن معاوية » (القزويني ، المصدر السابق ص ٣٥٤) وانظر ايضا التعليق على رواية هيرودتس بشأن نهر «كورس» في جزيرة العرب ، ورواية بطليموس بشأن نهر «لار» المصدر التالي (د . جواد علي . المصدر السابق ج١ ص١٥٨ ـ ١٦٠)

(١٦) علي عقيل : المصدر السابق ص ١٩٠ .

وتذكر جاكلين بيرن في تقرير لها عن شبوه عام ١٩٧٥ مايلي « عززت الرؤية الجوية وجود ما كنا قد اشرنا اليه وشاهدناه من قنوات للري على وجه الارض ، وكانت المساحات المزروعة هائلة تتجاوز بدرجة كبيرة الحقول الحالية المحيطة بالمدينة كما انها كانت تمتد حتى منطقة تبدو اليوم صحراء[١٧]

ان انتظام الري في وادي حضرموت في العهود السالفة كغيره من اودية اليمن بالاستفادة القصوى من هطول الامطار ، والاعداد لمياهها في الاودية القريبة والبعيده بالسدود والمصارف والسواقي ، وزراعة هذه الادوية بانواع الاشجار وخاصة النخيل وبالغلات الموسمية والخضار والفواكه ، جعل تبعا لذلك ، دورة ماء الطبيعة منتظمة ، فتهطل الامطار موسميا ، دون حدوث أي جفاف او محل ، كما انه نتيجة لذلك صار اختزان الارض للمياه جوفيا متاحا ومتيسرا بل حتميا ، فكان ذلك عاملا مساعدا في سهولة حفر الابار وقرب مياهها ويسر رفعها دون عناء ، الى ذلك فان ارتفاع منسوب المياه الجوفية اعطى التربة الامكانية لدوام التندية وتغذية جذور الاشجار وخاصة النخيل دون حدوث مثل هذا الجفاف المستمر والناتج عنه فناء النخيل يوما عن يوم . وفوق هذا فان جبال وادي حضرموت معظمها رسوبية تسمح اذا هطلت الامطار بان تنبت العشب الذي يخفض من حرارة الجبال المؤثرة في تلاشي السحب ، وتعطي بالعكس البرودة الكافية لتكوين السحب وهطولها[١٨] .

وربما يتم التذرع بالاحوال المناخية ونقص المياه طبيعيا مما تترك أثره على عموم المنطقة ووادي حضرموت بالذات ، ولكن الاستاذ علي عقيل يقدم لنا في بحثه قائمة طويلة بالسيول التي شهدتها المنطقة منذ عام ١٢٢٥ م وحتى سنة ١٩١٣م ، ذاكرا اكبر السيول واغزرها في كل قرن ،[١٩] وكان لبعضها

---

(١٧) علي عقيل : المصدر السابق، ص ٢٠١

(١٨) نفس المصدر ص ٢٠٦

(١٩) نفس المصدر ص ٢١٠-٢١٣

آثارا سلبية على المنطقة . لذلك يضطرنا الباحث الكريم للاتفاق معه بان سبب خراب المنطقة واندثار معالم العمران والحضارة فيها انما يرجع الى تقصير الانسان وليس الطبيعة(٢٠) .

وفي قسم اخر من ارض جزيرة العرب ، نجحت بعثة أثارية من تتبع بقايا قنوات الري الجوفية ، وكان ذلك في منطقة « صحار » على ساحل خليج عمان . فكانت واسطة الري هذه هي التي تسببت ـ بالاضافة الى النشاطات التجارية ـ في ازدهار مدينة صحار في حدود القرنين التاسع والعاشر الميلاديين وتأكدت البعثة بدليل امتداد هذه القنوات « تعرف محليا باسم الافلاج » ان مساحة الاراضي الزراعية كانت في تلك الفترات تفوق كثيرا مساحتها الحالية (٢١) .

ومما يؤكد اعتماد هذه الطريقة على نطاق واسع وفي انحاء مختلفة من جزيرة العرب ، ما كشفت عنه اعمال البعثة الدانمركية في جزيرة البحرين من بقايا قناة حجرية تأخذ المياه من عيون طبيعية في هضبة عالية في قلب الجزيرة وتسير بها صوب الغرب الى مجموعة من الحقول والبساتين لاتزال اثار بعضها قائمة لحد يومنا الحاضر . ولكن القناة لم تعد تصرف المياه كسابق عهدها الى المنطقة الزراعية . ويرى المنقبون الدانمركيون انها ربما استعادت نشاطها لو خضعت لعملية تنظيف وصيانة واسعتين ، وفي قولهم هذا اشاره الى تقصير الانسان اكثر من تقصير الطبيعة(٢٢) .

---

(٢٠) علي عقيل : المصدر السابق ص ٢١٤

(٢١) J. J. Wilkinson, "Sohar Ancient Fields project" in the Journal of Oman Studies, vol. I (1975) P. 159 ff.

(٢٢) Bibby : op. cit. P. 66-68

ان طريقة الارواء بواسطة الافلاج ، او القنوات الجوفية ، هي الطريقة المثلى للري في المناطق الممكن تنفيذها من ارض الجزيرة العربية ، فهي تحافظ على نظافة المياه في منطقة تكثر فيها الرياح الحاملة للاتربة والرمال ، وتحافظ على كمياتها من فعل الحرارة الشديد التي تؤدي الى تسرب نسبة عالية من المياه المكشوفة بسبب التبخر ، واخيرا فهي تتحكم في مسير المياه الجوفيه صوب مناطق الاستثمار الزراعية[٢٣] لذلك نجدها واسعة الانتشار في اقسام من جزيرة العرب ، في الحجاز وفي الخرج وفي الاقسام الشرقية ولعل في رواية هيرودتس عن عادة العرب القدماء في صنع قنوات من جلود الحيوانات ينقلون بواسطتها المياه من نهر يسميه هيرودتس نهر «كورس Corys »صوب مناطق بعيدة في قلب الصحراء ويخزنونها في صهاريج خاصة يرتادونها عند تنقلاتهم ، لعل في ذلك اشارة تاريخية قديمة الى اسلوب بناء القنوات الجوفية او الافلاج[٢٤]

ومن اقصى الجنوب الغربي لجزيرة العرب ، ومن عدن بالذات ، تتعرض الى نموذج اخر من مشاريع الارواء المتقدمة ، حيث تواجهنا في هذه المدينة ابنية في غاية المتانة والاتقان نحتت في الصخر على شكل احواض كبيره تتدرج في مستوياتها وتتصل فيما بينها ، يبلغ عددها (١٧) حوضا تقع على وادي الطويله في مدينة كريتر من المحافظة الاولى في جمهورية اليمن الديمقراطية • ووادي الطويلة عباره عن مضيق يبلغ طوله (٧٥٠) قدما يتلقى مياه المطر التي تنزل من اعالي الجبال وتصب في البحر • فمنعاً لتسرب المياه هدرا الى البحر ومنعا لتخريب السيل اقساما من مدينة عدن القديمة شيدت هذه الصهاريج أصلا كخزان لحفظ المياه للشرب • ويرجح ان يكون بناؤها في القرن

---

(٢٣) رضا جواد الهاشمي : « الافلاج » مشاريع الارواء العربية القديمة مجلة كلية الاداب ـ بغداد العدد / ٢٥ / ١٩٧٩ الصفحات ١٥ـ٤٠ .

(٢٤) Herodotus, III, 7-9

الاول الميلادي على عهد الحمير يين أن لم يكن قبل ذلك التاريخ . وتبلغ سعة الاستيعاب لهذه الصهاريج مجتمعة حوالي عشرة ملايين غالون ماء . ان خزانات ماء عدن القديمة تحولت اليوم الى معالم اثرية سـياحية بعد ان افتقدت مصادر مياهها . (٢٥) .

وحيثما تجولنا في اقسام جزيرة العرب واجهتنا بقايا الجهد الانساني العظيم والذي حول مناطق واسعة من جزيرة العرب الى جنات رغيدة كثيرة المياة والزروع تسرح في ارجائها ، بحكم هذا الواقع ، العديد من الحيوانات والماشية التي نصادف بعض رسومها على واجهات الصخور ، كذلك حفظت لنا المدونات العربية المختلفة صورا واضحة عنها .

تنتشر بقايا مشاريع الارواء في مناطق غدت اليوم قاحلة وموحشة ، ولم تكن لتلفت الانتباه لولا بقايا هذه المشاريع الاروائية القديمة ، من ذلك مثلا بقايا حوض تجميع المياه شيد سوره الخارجي من الحجر يقع في منطقة فيد جنوب حائل ، وهو على مقربة من طريق الحج العراقي للديار المقدسـة المعروف باسم طريق زبيدة(٢٦) وحتى لو كان الحوض من المنشآت الاسلامية فيبقى على الرغم من تاريخه الحديث نسبيا مؤشرا لنجاح الجهود الانسانية في تسخير الطبيعة لخدمة الاغراض الانسانية المتعددة .

وفي المنطقة الشمالية للمملكة العربية السعودية وعند « قريات الملح » يواجهنا بناء على شكل سور مستطيل مشيد بالحجر غير المهندم يشك في كونه حوض تجميع مياه ، يزيد طوله عن كيلو متر واحد (٢٧) ولاتزال المنطقة

---

(٢٥) لجنة مشروع الصهاريج وادارة الاثار والمتاحف . وزارة الثقافة والسياحة عدن ـ جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . الطبعة الاولى

(٢٦) مقدمة عن اثار المملكة العربية السعودية ص ٦٦، ٦٨ .

(٢٧) نفس المصدر ص ٩٥

القريبة من خيبر والطائف تشهد بقايا أبنية سدود لتجميع المياه لاغراض الشرب والزراعة ، منها سد الحصين جنوب خيبر[٢٨] وبركة الخرابة شمال شرقي الطائف مسافة (٩٥كم) [٢٩] ، وسد السلقي جنوبي الطائف مسافة (٣٥كم)[٣٠] .

واذا كانت آثار البرك واحواض تجميع المياه وبقايا قنوات الري واثار الحرث تختفي بفعل حركة الرمال وزحفها صوب الاقسام المعمورة ، فان بقايا المدن والاسوار والحصون المنتشرة في مناطق متعددة من جزيرة العرب تقدم صورة اوضح لمعالم الحياة العربية القديمة في هذا الجزء من المعمور .

والمهم في جملة الابنية الاثرية المكتشفة انها تشير الى جهود انسانية عظيمة ومتقدمة من الناحيتين الفنية والمعمارية ، كذلك تتبين منها امكانات مادية هائلة توفرت على تشييد مثل هذه الابنية . واكثر من ذلك ، فان هذه الابنية تنتشر اليوم في مناطق صحراوية قاحلة ، قلما تتوفر فيها شروط حياتية تتناسب مع حجم الابنية القديمة ، مما يدفعنا للشك في وجود ظروف مناخية انسب وجهود انسانية اكبر هيأت فرص الحياة المتطورة في هذه البقاع .

فعند الحافه الشمالية الغربية للربع الخالي وعلى مسافة حوالي (٧٠٠) كم جنوب غرب الرياض ، بالقرب من ملتقى سلسلة جبال طويق مع وادي الدواسر ، تقوم اطلال مدينة « الفأو » الاثرية القديمة . وقد شهدت المدينة اعمال تنقيبات نفذها قسم التاريخ والاثار بكلية الاداب في جامعة الرياض برئاسة الدكتور عبدالرحمن الانصاري في السبعينات ، اسفرت عن اكتشاف العديد من البقايا العمرانية من جملتها مركز سوق كبير يدل على الدور التجاري الهام الذي لعبته المنطقة منذ اكثر من الفي عام سابقة . ومن خلال ثلاثة مواسم

---

(٢٨) نفس المصدر ص ١٢٥

(٢٩) نفس المصدر ص ١٥٧

(٣٠) نفس المصدر ص ١٦١ ـ ١٦٢

تنقيبات شهدتها اطلال المدينة ، تم الحصول على كميات كبيرة من التحف والاثار النفيسة مما يتم عن مستوى حضاري متقدم احرزته المدينة ابان عمرانها ، منها مقابض ابواب صنعت من البرونز على هيئة اسد واوان فخارية يرجع تاريخها الى حدود القرن الثالث ق . م .[٣١] .

ويستدل على هذا التاريخ للمدينة من شكل الاواني الفخارية التي تميز الفترة الحضارية المعروفة بالهلينستية والقرثية[٣٢] .

والنموذج الاخر للابنية الكبيرة الذي تعرضه للقاريء جاءنا من المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية على مقربة من قرية صغيرة تعرف بالثاج تقع الثاج على مسافة نحو (٨٠) كم غرب مدينة جبيل على ساحل الخليج العربي ، وهي قرية صغيرة على اطراف سبخة واسعة تعرف بسبخة الثاج . وعلى اطراف هذه السبخة ايضا كشف عن بقايا سور خارجي ضخم يبلغ طوله حوالي (٩٠٠)م شيد من الحجر بسمك يبلغ (٨)م . وقد اجرت البعثة الدانمركية استكشافا اوليا في اطلال هذه المدينة عثرت اثناءه على بعض اللقى الاثرية التي من ابرزها دمى طينية على هيئة اشكال ادمية وحيوانية تنسب بموجب اشكالها الفنية الى العصر الهلينستي في حدود القرن الثالث ق.م[٣٣] .

---

(٣١) مقدمة ، المصدر السابق ص ١٨-٢١

(٣٢) مقدمة ، ص ٢١ ، يلاحظ على صورة الاواني الفخارية المنشورة على هذه الصفحة من كتاب « مقدمة » اناء يشبه الزمزمية كثيرا والتي عثر على مثيل لها في المواقع السلوقية والفرثية في العراق ، منها موقع « تل اسود » الذي نقبت فيه هيئة قسم الاثار بجامعة بغداد واثار تل اسود بما فيها « الزمزمية » معروضة الان في متحف قسم الاثار بكلية الاداب ـ جامعة بغداد .

(٣٣) Bibby : op. cit. P. 337 ff.

كذلك وجدت في اطلال المدينة نقوش كتبت بالخط المسند يعود تاريخها الى اواسط الالف الاول ق.م . ويرجع تاريخ هذه النقوش تاريخ المدينة الى الوراء قليلا . وعموما ، فان بقايا مدينة الثاج كما تكشف عنها الصور الجوية والاثار القليلة المتفرقة التي جاءت منها تؤكد فترة من الازدهار والتقدم عاشتها المدينة . ولايمكن تصور مثل ذلك الازدهار دون توفر الشروط الحياتية المناسبة[٣٤] ونشير في هذا المجال ايضا الى مايقال عن بقايا مدينة اخرى معاصرة للثاج تبعد عنها مسافة (١٥) كم نحو الشمال على مقربة من قرية « الحنا»[٣٥] . والموقعان قريبان من المنطقة التي تنتشر فوقها المستوطنات العبيدية .

تنتشر في المنطقة المحصورة مابين حدود الكويت الجنوبية شمالا وشبه جزيرة قطر من جانب الساحل وواحة جابرين من ناحية الارض ، مجموعة من المستوطنات التي ازدهرت في هذه المنطقة في حدود الالف الرابع ق . م . وبموجب الفخار المكتشف في هذه المواقع ، فهي تنسب الى الفترة الحضارية المعروفة في بلاد وادي الرافدين باسم « حضارة العبيد »نسبة الى اسم موقع اثرى تل « العبيد » يقع في جنوبي العراق غرب مدينة أور مسافة (١٠) كم . وهي بذلك تؤكد الصلات الوثيقة والقديمة التي ربطت الخليج العربي ببلاد وادي الرافدين. والمهم انهذه المستوطناتتنتشر على ساحل الخليجالعربي مثلما يقوم بعضها في داخل الأرض لمسافة (٧٠) كم من الساحل ، وأنها كانت تمارس نشاطا اقتصاديا يعتمد صيد اللؤلؤ والاسماك ، وربما تصديرها الى بلاد وادي الرافدين . والجدير بالانتباه ان معظم هذه المواقع التي يزيد عدد المستكشف منها على (٤٠) موقعا ، يقع معضمها في مناطق تفتقر لشروط الحياة الاساسية وابرزها المياه العذبة ، مما يؤكد نوعا من التغير المناخي في المنطقة[٣٦] .

---

(٣٤) مقدمة ، المصدر السابق ص ٣٧-٣٨ ، ٥٤- ٥٥

(٣٥) نفس المصدر ص ٥٩

(٣٦) رضا جواد الهاشمي : « وحدة العناصر الحضارية في الخليج العربي في ضوء المكتشفات الاثرية » مجلة « بين النهرين » العدد /٢٧/١٩٧٩ .

نعتقد ان الادلة المادية المطروحة سابقا تكفي لتركيب اطار عام واضح لمعالم الحياة القديمة في جزيرة العرب • وقد انعكس اثر هذا الواقع واضحا في كل مانمى الينا من تراث العرب المدون شعرا كان ام نثرا • وفي مقدمة التسجيلات الموثوقة لحياة العرب القديمة آيات القرآن الكريـــم وبعض مراسلات الرسول محمد (ص) والخلفاء الراشدين ، حيث تتبين منها صورا متعددة للنشاطات الزراعية والاروائية التي بقيت الى عهد الاسلام الاول •

فبالاضافة الى الاشارات الواضحة في القرآن الكريم عن اقوام قديمة عاشت فيجزيرة العرب وبادت ، كقوم عاد وثمود ، فان معظم الامثلـــة والتشبيهات والاستعارات التي يعتمدها القرآن الكريم انما تخلق انطباعا واضحا عن بيئة زراعية تتدفق بالخير والعطاء يقابلها سعي متواصل وجهود كبيرة يبذلها الانسان لاستثمار هذا الخـير العميم : تلقى كل الدعم والتبريك في تعاليـم الاســـلام •

وربما يعترض البعض على محاولة استفادتنا من آيات القرآن الكريم في تتبع الواقع الحياتي للعرب على اساس انه كتاب الله ورسالة سماوية لكل العالمين ، وعليه فيصبح ان تكون الامثلة التي يوردها لاتتفق مع بيئة العرب بل مع بيئات اخرى قد تكون في فارس او الهند او الصين •

ولكن بما ان القران نزل عربيا ، واللغة حالة تنعكس عليها الحيـــاة الاجتماعية للناطقين بها[٣٧] ، وبما ان العرب كانوا لبنة الاسلام الاولى وهم

---

(٣٧) Montgomery Watt: "The Arabian Background of QUR'AN P. 7 First International Symposium on Studies in the History of ARABIA : Sources of the History of Arabia, University of RIYAD 1977.